



ممالك الرعب والموت والجنون... لا تترك عليك شيئاً سوى جلدك

الطريق إلى تدمير ليس طريقاً عادياً. إنه أفعى أسطورية تتلوى وتتشاءب وتتطاوّل.

حضرني الشاعر المتنبّي في قوله:

نحن أدري وقد سألنا بنجيد = أطويل طريقنا أم يطول

كان شوق المتنبّي إلى مبتغاه يُشعّره بطول الطريق.. أمّا نحن فإن ما يُطيل طريقنا هو المجهول، وما ينطوي عليه من فداحات يصعب تصوّرها.

ما من شكّ أن اقتحام الخطر، أقل وطأة من ترقيبه، وتدمير لا تريد أن تصل.

- آآآآآآآآخ..

ما أوجعها من صرخة تشبه عواءً مجروحاً وممتدّاً على طول هاوية سحيقة.

- إخرس ولك شرموط.. شو في عندك؟

- الكلبشة.. الكلبشة انزلت، وعمتضغط عالعضم.

- روح أبو شريك دبّر له الكلبشة بمعرفتك.

- طحّ..

ارتطام أخمص البندقية بالرأس، كتّم الصرخة، وتركها معلّقة عند منتصف الهاوية، ثم شيئاً فشيئاً أصبحت السماء والأرض منطبقتين تماماً، لا يفصل بينهما سوى خيط من الأئين، وربما خيط من الدم، وفحيح اشطمان الميكرو.

يا إلهي كم يبدو الزمن بطيئاً ودبقاً وكرهه الرائحة!!

ممالك الرعب والموت والجنون... لا تترك عليك شيئاً سوى جلدك



- قدّيش باقي تانوصل؟

سأل أحد أفراد الدورية، فأجابه آخر:

- ما أكثر من نص ساعة.

- نص ساعة والعكارت بعدهم نايمين. نايمين يا عكارت ما هيك؟! من شوية كنتوا بالفرع عاملين لي قبضيات! هلق منشوف زلوميّتك.. قال شو..؟ ما بتعرف خيرو لتجربّ غيرو.. والله تا تُشوفوا نجوم الظهر هلق.. بتستاهلوا.. ما بعرف شو كان بدكن بهالشغلة الوسخة.. كلّيّتك مثقفين وعايشين وعين آله.. زُفستوا النعمة لشو؟! ولك شو يللي ما عاجبك بسيادة الرئيس آ آ؟ منين بدكن تجيبوا رئيس أحسن مُتو؟! أحكوا.. هاتوا تاشوف.. منين؟ صدقوني إذا بتبرموا الدنيا شرق وغرب، ما رح بتلاقوا رئيس بيحي لضفر من صافيرو.. والله لو تفهموا وتقدرُوا بس، تا كنتوا تركعولو وتصلُّولو يا عكارت.. قولولي بس شو يللي ما عاجبك فيه؟! ولك والله شاختو دوا.. ولك والله والله خريتو مزار..

كانت كلمات المحاضرة تخرج من فم العسكري مهتوكة ومشترمة ومليئة بالتأتأة والنبر في غير أماكنه، وبين الجملة والأخرى كانت أخامص البنادق، تكمل عرض براهينها المفحمة بالدقّ على رؤوسنا حتى توقّف الميكرو.

- سمعوني كيّس. هلق وأنتو نازلين بتتركوا الطمّيشات عند باب الميكرو، هيدول طمّيشات الفرع.. متسمعوا شو مَقول؟ بتنزلوا وعيونكن مغمّضة وروسكن بالأرض، وكل واحد إيدو بإيد رفيقو.

صقّان من أفراد الشرطة العسكرية مع سياط عريضة وسميكة ينهالون بها علينا مترافقة مع لكم وركل وأصوات بهيمية زاجرة.

بعد زمن يشبه الغيوبة، وجدنا أنفسنا محشورين في غرفة صغيرة على ثلاثة أنساق، واجمين ووجهنا إلى الحائط.

أوقفونا على ثلاثة أنساق، ولسبب ما طلب مني أحدهم أن أقف منفرداً بمحاذاة الجدار، ثم ران صمت موحش كتيّم.

ممالك الرعب والموت والجنون... لا تترك عليك شيئاً سوى جلدك



تساءل أحدنا:

- هل انتهت التشريفة؟

جاءه الصوت من الخلف كضربة سوط:

- بلا حكي يا منيوك.

ران الصمت من جديد.. ثم فجأة أحسست بيد صلبة، تسحبني من كتفي.. التفثُ لأرى نفسي أمام رقيب أشقر فاقع، يرفع رأسه على نحو استنكاري، وهو يحدجني بنظرة حجرية، تقدح إنذاراً ما.

هزرت رأسي مستفهماً عما يريد، فقال لي:

- غمّض عينيك.

لم أكن أعرف، أن إغماض العينين في تدمر، هو الدرس الأول، الذي يتلقاه السجين فور وصوله.

تذكرت كلمات رئيس الفرع:

- يا كلاب.. فور ما تنرفع الطميشة عن عيونكم، بتصيروا تحلقوا بوجه المحقّق بطريقة.. بطريقة.. حتى القحبات ما بتقدر عليها.

أعاد الرقيب أمره لي بنفاد صبر، كما لو أنه الإنذار الأخير قبل إطلاق النار.

فكّرت أنني لو استجبتُ له فسأعطيه إشارة واضحة إلى إمكانية ترويضني، وذلك ما لا ينبغي أن يحدث.

كان يحذّق بي بنوع من الاستغراب والاستهجان، وكأن من الطبيعي أن أكسر نظري أمامه. اقترب مني أحد العساكر..

ممالك الرعب والموت والجنون... لا تترك عليك شيئاً سوى جلدك



- كل شي عم يقوله حضرة الرقيب أمر عسكري مُنزل من عند الله، ورفض التنفيذ، يعني كفر وتمرد.. نَفَّذَ أحسن لك.

همسات بعض الرفاق تصلني راجية ومشجعة ومستغيثة ومؤنية ومواسية كي لا أكْبُر الموضوع.

أغمضتُ عيني لعل الرقيب يكتفي بذلك.

- أغمض جيداً.

أغمضتُ بقوة، لعلي أقنعه بأنه انتصر، غير أن صفة كافرة طرقت صوتها تاركاً في فضاء الغرفة صمتاً مدوياً، أعقبه طنين شامت، شعرت معه أنني أقف على نصل حادّ، يشقُّني بين رغبتي: الانتحار أو البكاء.

بعد قليل نقلونا بضعة أمتار إلى الداخل، وأبلغونا أن من يسمع اسمه عليه أن يقول "حاضر" ثم يذهب مع العسكري إلى غرفة الذاتية لتسجيل قيوده وتسليم الأمانات من ذهبٍ أو خواتم ونقود وساعات إلخ.

- فلان الفلاني..

- حاضر.

- يا ابن المتناكة.. قل حاضر حضرة الرقيب، وبعدين تحرّك.

ولأن مجموعتنا تضم خليطاً من حماة ودمشق وحمص وطرطوس واللاذقية والرقبة، علّق أحدهم:

- باينتكم يا عرصات مثل برنامج إذاعة دمشق تبع "من كل قطر أغنية".

انتهينا من الذاتية فساقونا خطوات إضافية إلى الداخل، ثم طلبوا أن نخلع أحذيتنا ونجلس مع شبك أيدينا حول ركبنا.

شحاطة راشد جديدة. أحد رفاقنا في فرع فلسطين أهداها له. مرّ بقرينا أحد عناصر السخرة أو "البلدية" حسب تسمية السجن، فلبس شحاطة راشد وترك له شحاطاً مهترناً ومبلاً بالشحوم والزيوت. اعترض راشد، وليته لم



ممالك الرعب والموت والجنون... لا تترك عليك شيئاً سوى جلدك

يعترض. تجمّعوا عليه مثل قطع ذئب هيّجتها رائحة الدم.

هُوّة عميقة من الصمت، ثم بدأت من الخلف ماكينة حلقة يدوية راحت تتقدّم باستهتار وهي تفلح رؤوسنا وشواربنا.

بعد تنف أحد شاربيّ في فرع فلسطين، ها أنذا أتذكر مرة ثانية فيلم الأرض، أعني مشهد التماع بريق الدمع في عيني الممثل الكبير محمود المليحي، حين عاد إلى قريته مكسوراً بعدما تعرض للسجن والإهانة الكبرى بحلق شاربيه.

نظرة سريعة كافية لتؤكد أننا لسنا نفس المجموعة التي كناها قبل قليل، فالأدميّ بشعر وشاربين، ليس هو نفسه بدونهما.

- بلدية..

صرخ الرقيب

- خذوهم إلى باحة التشريفة.

يا دين دينكم!

إذن ليس كل ما مضى سوى تحضيرات للتشريفة؟!

- إخلع كامل ملابسك.

الأوامر مسنونة قاطعة، لا بل هي كالطلقات لا تقبل رجوعاً بعد إطلاقها. تبخّرت جميع أفكارنا التي تداولناها في فرع التحقيق بشأن رفض التشريفة.

بدأنا بخلع ملابسنا ونحن نتلکّأ بفك الأزرار، كمن يحاول تأجيل قدر محتوم، ولو لبضع ثوان إضافية، لعل معجزة ما، تغيّر مجرى الحكاية.

ممالك الرعب والموت والجنون... لا تترك عليك شيئاً سوى جلدك



- نخلع الكلاسين أيضاً؟

- لا تترك عليك شيئاً سوى جلدك، فنحن بحاجة إليه.

وهكذا راحت السيّاط تتلامح وتتوامض وهي تشهق ثم تشخّط الهواء بزفيرها. رأيت الكثير من أفلام الرعب والمغامرات، وكنت أنتبه جيداً إلى الموسيقى التصويرية، ولكنني لم أسمع أبداً ما يمكن أن يقارب هذه الأصوات الممزقة بين الصراخ والعواء، وما يشبه الولاويل، ثم شيئاً فشيئاً صارت الأصوات بخاء متهدّجة، وهي تجرّ وراءها أنيناً مخطوفاً، تتخلله شهقات دامية متقطعة.

الكاتب: [فرج بيرقدار](#)